



تطور الفكر القومي الألماني

انتشرت أفكار المتنورين الفرنسيين والبريطانيين بين الطبقة الوسطى الألمانية والبلدان المجاورة الألمانية في القرن الثامن عشر، وقد ظهرت حركة فكرية نشطة في كل حقل من حقول المعرفة نتيجة لذلك، ودخلت ألمانيا في عهدها الكلاسيكي في الفلسفة والأدب.

وكانت ميول الطبقة المثقفة الألمانية عالمية وبعيدة جداً عن القومية السياسية، إذ إن الإقليمية المتطرفة والمنافسة بين الولايات الألمانية، وارتباط العوائل الألمانية بالعوائل الحاكمة الأجنبية جعلت من المحال تطبيق سياسة قومية قوية، وقد تذر بعض الكتاب من فقدان الاتحاد بين الألمان، وتدخل الدول الأجنبية في شؤون ألمانيا، وعدم وجود سلطة مركزية تربط الولايات بعضها ببعض وتوحيدها، كما لم يكن هناك أثر للقومية السياسية التي تسعى حثيثاً لتكوين دولة قومية كبرى، يضاف إلى ذلك عدم وجود قومية ثقافية يمكن التباهي بها لإبعاد الثقافات الأجنبية. (١٨)

اتخذت فكرة اللغة أساساً للقومية الألمانية ومعياراً لها، بحيث أضحت هذه القومية إلزامية على كل المتكلمين باللغة الألمانية والمنتمين إلى الجنس الألماني بصرف النظر عن الدولة التي ينتسبون إليها، وبذلك جاء الأساس الألماني للقومية نابعاً من ظروف الشعب الألماني الذي كان موزعاً بين دول كثيرة، بقصد توحيد داخل إطار دولة واحدة، وهو بذلك يختلف عن الأساس الفرنسي للقومية الذي يقوم على الرغبة في العيش المشترك (وهي بذلك قومية إرادية وليست إلزامية)، مستجيباً لظروف وأمانى الشعب الفرنسي التي لم تكن تتفق وظروف الشعب الألماني وأمانيه، فقد كانت فرنسا قد أتمت وحدتها السياسية

واستولت على أقاليم ليست الفرنسية لغة أبنائها، وبقيت تتطلع إلى السيطرة على مناطق أخرى وخاصة منطقة (الراين)، يقطنها أفراد ينطقون باللغة الألمانية (١٩).

إن أول من أشار، في العصر الحديث، إلى حقيقة أن اللغة هي المقوم الأول للقومية، فريق من العلماء الألمان الذين نبهوا الأذهان إلى هذه الحقيقة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر والتاسع عشر.

ويقف في الطليعة جوهان هيردر (1744-1803 J. Herder)، المؤرخ الأديب والفيلسوف الاجتماعي، ذو الدراسات الواسعة في أكثر من فرع واحد من فروع المعرفة الإنسانية، فلقد كان "هيردر" أحد القوى الفعالة في تاريخ الفكر الألماني، وهو الذي أعطى اتجاهاً جديداً لتطور الشعر واللاهوت وعلم النفس والدراسات اللغوية وغيرها، إن أهميته تتبع بالدرجة الأولى من أنه المبدع "للحس التاريخي" GHistorical sense في ألمانيا، وقد نشر في عام ١٧٧٤م كتاباً عنوانه "فلسفة أخرى في تاريخ البشرية" أرفده بعد ذلك بكتب أخرى نشرها بين عامي ١٧٨٤ و ١٧٩١م تحت عنوان "آراء في تكوين فلسفة التاريخ البشرية"، وتتلخص آراؤه حول علاقة اللغة بنفسية الأمة وشخصيتها بما يلي: (الطبيعة فرقت الشعوب بعضها عن بعض، ليس بواسطة الغابات والجبال والبحار والصحارى والأنهار ... فحسب، بل فرقته أيضاً- وبوجه أخص- بواسطة اللغة والميول والسجايا.. إن اللغة القومية بمنزلة الوعاء الذي تتشكل به وتحفظ فيه، وتنتقل بواسطة أفكار الشعب.. اللغة .. سواء أقبلنا أنها خلقت دفعة واحدة من قبل الله، أم ذهبنا إلى أنها تكونت تدريجياً بعمل العقل.. إن روح الشعب يكمن في لغة الآباء والأجداد..). (٢٠)

كانت آراء "هيردر" الحلقة الأولى في سلسلة المفكرين الألمان الذين اعتبروا اللغة الأساس الذي تبنى عليه القومية، وقد جاء من بعده الفيلسوف الكبير جوهان فيخته (1762-1814 Eichte Johann م)، الذي هزته النكبات التي تعرضت لها أمته الألمانية من جراء تسلط نابليون، وخاصة بعد هزيمة بروسيا أمام الجيوش الفرنسية في موقعة "يينا"، أخذ عندئذ في الوسائل التي تمكن الألمان من التخلص من هذه المهانة، وتحول في منتصف العقد الخامس من عمره إلى مفكر قومي كبير الإيمان بقومه، شديد الحرص على مصالحهم، وأصدر عام ١٨٠٧م كتاباً بعنوان "محاضرات وطنية".

ولقد توسع فيخته في نظريته هذه في المحاضرات التي ألقاها في عام ١٨٠٧-١٨٠٨م في جامعة برلين التي كانت قد أنشئت حديثاً لتصبح مركزاً مهماً من مراكز الإشعاع القومي للأمة الألمانية، وكان قد اختير أول رئيس لها، ويقول في خطبته الأولى وهو يخاطب الأمة الألمانية كلها دون أن يلتفت إلى

التجزئة التي منيت بها على حد قوله: "من جراء أنانية الملوك الأمراء، ودسائس الدول الأجنبية الطامعة في البلاد الأجنبية" "إنه يعتبر الألمان أمة واحدة وأن ما بينهم من فروق هي على حد تعبيره وليدة "الإحداث المشؤمة التي جزأت الأمة الواحدة وصيرتها دولاً عديدة"، ثم يقول وهو يتوقع مستقبلاً باهراً لأُمته:

"إن الألمان الآن في حالة أشلاء في وادي الأموات، عظام يابسة مبعثرة في كل الجهات، ولكن صور الوطنية سيعمل فيها عمل (صور اسرافيل) سيجمع تلك الأشلاء، سيبعث فيها الحياة وسيجعلها أمة ناهضة تنبض فيها روح القوة والنشاط.

إن الحدود الأساسية التي تستحق التسمية، باسم (الطبيعية) هي الحدود الداخلية التي ترسمها اللغات، فإن الذين يتكلمون اللغة الواحدة، يرتبط بعضهم ببعض بحكم نوااميس الطبيعة بروابط عديدة فيكونون كلاً لا يقبل الانفصام".

وجلي من هذا أن فيخته قد اعتبر اللغة الألمانية الأساس للقومية الألمانية، ودعا إلى لزوم وحدة كل الناطقين بها بوصفهم أمة واحدة، وكان لنظرياته وآرائه هذه أثر كبير في نفوس كثير من المفكرين والكتاب والشعراء الألمان الذين بقوا ينادون بهذه الفكرة إلى أن تحققت على يد بسمارك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

ويتكلم فيخته عن طبيعة الوطنية والشخصية القومية National Character ويقول: "إن الشعب يسمى شعباً لأنه يتمتع بشخصية قومية، وذلك يعني الإيمان والاعتقاد بأداء واجب معين أو أداء رسالة التي هي تعبير عن الرسالة الإلهية".

"إن الألمان وحدهم شعب حقيقي (أي الألمان الأصليين الذين لم يضطهدهم حكم جائر) بينما الأجانب ليسوا شعباً حقيقياً، ولهذا فإن النفسية الألمانية وروحيتها تستطيع أن تحب شعبها وتعبّر عن وطنية حقيقية، إن الفرد باندماجه في روح الشعب ونفسيته (أي في الشخصية القومية) يقوم بإدامة حياته وبنال الحياة الأبدية في هذه الدنيا، إن الوطنية إحساس ديني، ومع ذلك فإن حب الفرد لبلده وشعبه لا يتناقض مع حب البشرية.

ويعتقد فيخته أن الشعب الألماني قدر له القيام بتجديد الفلسفة والأخلاق والدين للبشرية، وانبعثت ألمانيا الروحي، وهذا وحده له قيمة خاصة، ولا يرغب فيخته في الوطنية التقليدية والغرور القومي الذي لا تربطه بالرسالة الروحية لشعبه برابطة.

أثار فيخته، كأى مفكر أفكاراً أو تيارات فكرية مغايرة لأفكار أسلافه، ولم تكن أفكاره خالية من التناقض وبعض الأنانية، كما أسىء تفسير بعض آرائه من قبل القوميين المتطرفين فيما بعد، لكن أفكاره الرئيسة كانت معارضة للقومية المتطرفة المبنية على القوة والهيبة لأن فيخته نشأ كإنساني، ومن بين الكثير من زعماء القومية كان ماتزيني متأثراً به تأثراً عميقاً .

النزعة القومية الألمانية ارتبطت أيضاً بالنزعة الرومانسية (أو الرومانتيكية) في الأدب والفكر والفنون، التي كانت تمجد الحرية والبطولة الفردية والتخلص من قيود العصر القديم وتمجد التراث الشعبي الألماني كأصدق تعبير عن التلقائية وعن روح الشعوب وشخصيتها، الذين كانوا رمزا للحريات القومية والسياسية، كما ارتبطت أيضاً بالليبرالية السياسية والاقتصادية التي كانت تريد المساواة الدستورية بين كل الناس في كل الحقوق والواجبات. وكان الكاتب الألماني نوفالس Novellas يقول: "يوجد الألمان في كل مكان، وإن الألمانية كالرومانسية والإغريقية والإنكليزية، لا تتحدد بمنطقة ما أو بدولة ما، لأنها نماذج بشرية عامة فالألمانية نوع من الشعبية وهي حقيقة ومثالية، أن الألمانية عالمية تمتزج بها الفردية بشكل عنيف".

لقد بين كثير من المفكرين المثاليين والرومانسيين الألمان بأن الشعب الألماني قدر له أن ينشئ ويطور العالمية ويطبق الفضائل الثقافية العليا لكل الشعوب لا عن طريق الحرب والسيف وإنما عن طريق انتشار الأفكار ولآراء ونشر الحضارة الألمانية، لقد كانت آمال هؤلاء المفكرين أن يقود الألمان شعوب العالم إلى أعلى مراحل الفضائل الإنسانية، وتصبح اللغة الألمانية لغة الثقافة في العالم أجمع.

أما فلسفة هيجل فقد كان لها تأثيرها في الفكر الماركسي، كما تمسكت بها كفلسفة قومية بروسيا التي وحدت ألمانيا ولهذا يعتبر بسمارك من أنصار الفلسفة الهيجلية بل ويمكن القول أن هتلر قد تأثر بهذه الفلسفة خصوصاً في تفسير هيجل للتاريخ الذي يقول أن التقدم هو حرب وصراع بين الشعوب تكون الغلبة فيه للمنتصر، وأن من غلب في التاريخ كان على حق والذين انتصروا على نابليون لم يغلبوه صدفة، أنهم يستحقون الظفر لأنهم انتصروا، ويضيف "أن الشعب الذي يمثل زمناً ما من نمو الفكر له

على الشعوب الأخرى كلها حق مطلق، وليس لهذه الشعوب حقوق عليه وإن الشعوب التي ولى زمنها لا تعتبر في تاريخ العالم".

لقد كان هيجل من أعظم تلاميذ التاريخ والسياسة وكانت له معرفة واسعة بالحقائق التاريخية والسياسية، وتفهم عميق للمشاكل التاريخية والسياسية، ومع أن حكم الإرهاب في فرنسا قضى على حماسه للثورة، لكنه لم يرغب في عودة الماضي والسلطة الرجعية التي قضت عليها الثورة، لقد كانت ملاحظاته في ألمانيا وسويسرا ودراساته قد أقنعتة ان الملكية المطلقة والإقطاعية أنظمة غير راسخة وبالية ولا يمكن تطبيق الديمقراطية في أمم لم تؤهل لها تأهيلا ثقافيا تاما.

القومية في ايطاليا.

وفي القرن الثامن عشر انتهت حرب الوراثة الاسبانية بفرض حكم النمسا على ايطاليا، وكان الإدارة النمساوية متتورة وتقدمية وشعبية، ولم يكن هناك أثر تقريباً لحركة التحرر الوطني والوحدة لأن المشاعر المحلية كانت متأصلة الجذور في عقل الشعب، ولكن الثورة الفرنسية أثارت تطلعا نحو الحرية القومية ودعم توحيد ايطاليا الوقتي تحت حكم نابليون شعور الوحدة إلى حد كبير،^{(٣١)} ويبدأ رواد هذا التوجه الجديد يشددون على أقوال نابليون في مذكراته في سنت هيلانه ومنها حديثه عن الايطاليين والألمان حيث قال "كان بودي أن اجعل من هذه الشعوب شعباً واحداً، بل أمة واحدة"، وقوله إن هدفه بالنسبة للايطاليين كان "تربيتهم تربية قومية"، وهكذا حولت ردود الفعل ضد مؤتمر فيينا ذكريات نابليون إلى حجج لصالح الحركة القومية والثورة ضد الأوضاع التي فرضتها سياسة مترنيخ مستشار النمسا إلى حجج لصالح الحركة القومية والثورة ضد الأوضاع التي فرضتها سياسة مترنيخ مستشار النمسا^{(٣٢)}.

وهكذا بعد سقوط نابليون عادت سيطرة النمسا، ولكنها سرعان ما واجهت موجة صاعدة من الحركة القومية، وزاد العداء نحو الحكم الأجنبي حدة بسبب الطابع اللاتحرري لنظام مترنيخ، وتطلعت حركة القومية الايطالية لا لمجرد الاستقلال فحسب، بل كذلك للحرية السياسية، وكان من الطبيعي إلا ترضي التطلعات القومية بمجرد الكفاية الإدارية والميزات المادية لحكم وصف بأنه أجنبي، برغم أن معظم الموظفين كانوا ايطاليين، وارتبط بالمشاعر المحلية.

ومع ذلك فإن المشاعر المحلية كانت لا تزال قوية الأثر في شعوب الأقاليم الايطالية المختلفة، وعندما توحدت جنوا مع مملكة سردينيا وسافوي في مؤتمر فيينا كان من الممكن أن يعتبر ذلك خطوة نحو

الوحدة، ولكن شعب جنوا تذر بشدة لخضوعه لأسرة سافوي المالكة، وكان يحن للاستقلال الجمهوري القديم، وكانت روما وميلانو والبندقية ونابولي أيضاً مزهوة بماضيها المجيد وظلت فترة طويلة على غير استعداد للتضحية باستقلالها من أجل فكرة الوحدة القومية، وكانت الحركة القومية في أول الأمر تضم أقلية صغيرة فقط كان من البارزين فيها ضباط نابليون وموظفوه السابقون من الايطاليين، ثم انظم الطلبة وكثير من النبلاء والطبقة الوسطى إلى الحركة، ودعا الليبراليون إلى فدرالية الدول الايطالية التاريخية على رأسه ملك سردينيا أو البابا بوصفه رئيساً، في حين وقف الراديكاليون بقيادة مازيني يطالبون بالوحدة الكاملة في جمهورية على غرار النمط الفرنسي،^{(٣٣)} وقال ماتزيني : "إن القومية هي انتماء جماعة بشرية واحدة لوطن واحد شريطة أن يجمعها تاريخ مشترك ولغة واحدة في أرض هذا الوطن"^{(٣٤)}، وبهذا انبعثت ايطاليا انبعثاً جديداً وانتشرت روح الوطنية فيها بتأثير أفكار مازيني وجمعية ايطاليا الفتاة بين عامي ١٨٣١-١٨٧٠م، ومع أن ماتزيني كان يتأمر باستمرار، ويلهم الناس بآرائه وحماسه الوطنية، إلا أنه لم يكن مسؤولاً مباشرة على وحدة ايطاليا السياسية، إنما كان ذلك من عمل كافور وغاريبالدي.

لقد كان ماتزيني متأثراً بفلسفة فيخته وهيجل، كما أن أفكاره الحرة مقتبسة من الكاتب السياسي الانكليزي جيرمي بينثام (Jeremy Bentham 1779-1832م)، ومبادئ الثورة الفرنسية، وأشهر كتاباته: "واجبات الإنسانية، والقومية، والعقيدة والمستقبل" ومع أن ماتزيني لم يكتب بذهنية منطقية منظمة كالفلاسفة، لكن كتاباته تتوهج بالعاطفة والحماسة والجاذبية الأدبية^{(٣٥)}، كما كانت الجماهير منذ أمد طويل على ولاء لحكامها التقليديين، أو غير مبالية، وكثيراً ما حاربت حتى ضد دعاة الثورة القومية، بيد أن الحركة اكتسبت شعبية بنجاح متزايد، كما حصلت على تأييد قوي من جانب نابليون الثالث الذي كان يراوده الأمل في استخدامها لزيادة قوته ولكن تغلب عليه كافور بدبلوماسيته.

وبعد هزيمة النمسا على يد الجيوش الفرنسية والايطالية طرح توحيد الدول الايطالية تحت ملك سردينيا، وكذلك اتحاد سافوي ونيس مع فرنسا الذي كان الثمن الذي تقاضاه نابليون لمساعدته، في استفتاءات عامة، وتمت الموافقة عليها بالإجماع تقريباً في كل مكان، وتم التوحيد في صورة اتحاد كامل، ومسحت ايطاليا كل أثر للمحلية، ومن ثم فإن المعارضة الكامنة لحكم ايطاليا بواسطة أسرة سافوي المالكة دعمت صفوف الراديكالية المناهضة للملكية وبخاصة في الجنوب.^{(٣٦)}

تعد بريطانيا أول دولة تجلت فيها الشعور القومي أو (الطابع القومي)، بمظهرها الكامل إبان القرن السابع عشر، وقد تبوّأت بريطانيا مكانة الزعامة لأول مرة في هذا القرن بين الدول التي اشتمل عليها المجتمع الأوروبي، وبأشرت زعامتها في تلك الميادين التي امتاز بها العصر الحديث، والتي تميزه بشدة عن غيره من العصور السابقة ألا وهي الروح العلمية ونشاط الفكر السياسي والمشروعات الاقتصادية، وقد سرت في الشعب البريطاني ثقة عظيمة بسبب الآفاق الجديدة التي تفتحت أمامه، فشعرت بأن القدر قد ألقى على عاتقه رسالة التاريخ، وشعر عامة الشعب البريطاني بأنهم هم الأسرع في التطور في وقت يعد نقطة تحول كتب لها أن تكون بداية حركة إصلاحية حقيقية جديدة، وقد تحدث الثورات التي قامت في بريطانيا باسم حرية الإنسان في القرن السابع عشر تلك التقليد الاستبدادية التي ترتكز عليها الكنيسة والدولة.^٨{(٣٧)}

وعلى الرغم من أن بريطانيا سبقت جميع البلدان الأوروبية في الشعور بالقومية، ففي الوقت الذي كانت الإقليمية سائدة في فرنسا كان البريطانيون يعدون أنفسهم قوميين ينحدرون من أصل واحد، ووقفوا صفاً واحداً تحت راية الملك هنري الثامن ضد البابوية وفصل الكنيسة عن روما، كما ساندوا الملكة إليزابيث في حرب الأرمادا ومغامراتها التجارية عبر البحار، ويمكن أن نجد الشعور القومي في كتابات جون ملتن John Milton وجون لوك John Locke وبولينبروك (38)^{Bolinbrook}.

كما أن القومية اقترنت بفكرة الحرية الفردية إلى درجة لم تعرف في أي مكان آخر، وكان جون ملتن (١٦٠٨-١٦٧٤م)، أكبر مؤيد لهذه الحرية في كتاباته، فلم تكن القومية عنده صراعاً من أجل الاستقلال الجماعي والتحرر من السيطرة الأجنبية، بل كانت تأكيداً لتحرير الفرد من سلطة الحكومة وإثبات الشخص لوجوده حيال حكومته أو كنيسته، أي "تحرير الإنسان من ربة العبودية والخرافات" وكان الحرية في نظر ملتن حرية دينية وسياسية وشخصية، وقد ختم ملتن خطبته في البرلمان البريطاني قائلاً "أمنحي حرية المعرفة والكلام والمناقشة طبقاً لما يميله علي ضميري قبل أن تمنحني أية حرية أخرى"^٨{(٣٩)}.

ومع حلول القرن الثامن عشر تطورت الفلسفة القومية في وسط التطور الفكري البريطاني الذي كان ميزة بارزة من مميزات ذلك القرن، لقد كان القرن الثامن عشر قرن المفكرين العظام بلا منازع، وكان هؤلاء يعدون أنفسهم فلاسفة متنورين، وولهدا كان عصرهم عصر التنور أو الاستتارة، وكان التنور حركة فكرية

يعني الاستعاضة عما وراء الطبيعة بالطبيعة، واللاهوت بالعلوم، والافتراض بأن كل ما في الكون المادي والفكري يوجهه ويهيمن عليه قانون ثابت.